

على هامس معركة عين جالوت :

بين مصر ولبنان

للأستاذ أحمد رمزي بك

فروع ، مثلهم في لبنان كمثل آل سلجوق في الدنيا ، الكل لهم فروع من أتابكة وأيوبيين وأمراء من البحرية والبرجية وملوك من آل عثمان وسلاجقة الروم لأنهم كانوا الأصل والموتل والمرجع ومن سرام فهم فروع لهم .

بنوهاثم في كل شرق ومنرب كرام بني الدنيا وأنت كريمةا وسأتيك نبأ من أخبارهم يحلولى زديده وذكره ، وهذا حديث يصح فيه قول البحترى :

وهو ينيبك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس فقد ذكر صالح بن يحيى خبر المرسوم الذى بث به المز أيبك^(١) صاحب مصر إلى سعد الدين خضر أحد مقدى أمراء الغرب وقال إن أهل الشام نسبوا أمراء الغرب إلى المصريين فجعموا لهم جوعاً من المشار النازلة في بملك والبقاع وساروا بهم نحو جبال لبنان ، والتقوا معهم في بلدة عيتات في ٢ ذى القعدة سنة ٦٥٣ هجرية ، فاقتتلوا وكتب النصر لألوية أمراء الغرب ، وكان فارس المركة وصاحب الشهرة واليد الطولى أمير منهم اسمه زين الدين صالح بن على بن بحر بن على ، سطع نجمه من ذلك اليوم وسيأتى ذكره في معركة عين جالوت وغيرها من حوادث الزمن .

وصالح بن يحيى هذا مؤرخ القوم قال « وجدت باسم سعد الدين منشوراً من الملك المزمز أيبك التركانى أول سلاطين الترك بالديار المصرية والعلامة « حسبى الله » وأبدى لنا تعجبه لأن بيروت كانت تتبع الشام والنشور مصرى وهو يعلم أن الملك الناصر الأيوبي صاحب ديار الشام كان يروم أخذ مصر وإعادة ملك الأيوبيين كسابق عهده قبل أن يستقل بها أمراء الأتراك ، وكان المزمز أيبك يدافع عن ملك مصر ويروم قهر الناصر ، وكانت حوادث وخطوب ومعارك ، وانتصر فيها المز وزينت القاهرة ومصر وقلمة الجبل وقلمة الروضة عدة أيام حينما دخل العاصمة والأسرى بين يديه والسناجق منكسة والطبول مشققة ، ولعبت الفرسان بالرماح على الخيل في ساحة بين القصرين ، حتى إذا وصلوا إلى تربة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، صاح البحرية :

(١) تاريخ بيروت : أخبار أمراء الغرب - نصره الأب لويس شيخو

أمراء الغرب البُختريون من تنوخ^(١) أهل المجد وأصحاب الرياسة في لبنان كانوا طوال الأعصر الماضية حلفاء مصر ويدها الميلى في كثير من الملمات والحوادث . كانت « إعبية » معقلا لهم وفيها آثار قلاعهم وقصورهم ، ما سررت بها إلا وغلبتني دمة حاولت إخفاءها ، فقد دالت منذ زمن بعيد دولة أمراء الغرب وذهبت ربحهم أو قل مع الرياح أخبارهم ، كما دالت وذهبت مع الرياح دولة مصر الإسلامية التى كانت تهز الدنيا ويخشها أهل الشرق وأهل الغرب .

وبقيت ذكريات ذلك المهد وآثاره وأعمال مصر الإسلامية العربية وجهادها وهى جيماً تحرك النفس وتدعو إلى العجب من هذا النسيان الذى لا أجده تفسيراً لدى أحد من الناس ، نعم عجبى من هذا النسيان الشامل الذى نيش فى غمراته .

لقد ذهبت أخبار أمراء الغرب ودفعوا ثمن ما عرف عنهم من ولائهم لمصر وعرشها^(٢) غالباً بعد معركة مرج دابق وزوال الدولة المصرية من الوجود ، ثم فنت جوعهم واندكت صروح مجدهم ولم يعد يسمع لهم خبر بعد أن ورث المنيون وهم أتباعهم ثم أسهارهم الملك والإمارة من بعدهم ، وجاء الشهابيون وهم من أتباع آل ممن فودروا الإمارة والرياسة من هؤلاء ، فاندثرت الرياسة الكبرى لأمراء الغرب من تنوخ إذ هم الأصل والكل

(١) ينتسبون إلى قنوخ بن قطان بن عوف بن كندة بن جندب بن منجج بن سعد بن طى بن غيم بن النعمان بن المنفر - وتنوخ اسم حبشى .
(٢) حضر من أمراء الغرب نفر الدين معركة مرج دابق ولم يقاتل وخلع عليه السلطان سليم بناء على إشارة التزالي ثم اشتد ضغط التباين عليهم بعد ذلك ، هذا خلاف من اعتقل من أسماهم لثباتهم على أمانة ممالك مصر .

زين الدين المذكور وهو من أمراء الغرب فتقدم بماليك السلطان جماعة وشهدوا في حقه وحسن بلائه وقتاله للتار على ذروة الجبل فنظر الظفر إليه وعفا عنه .

ونقل عن زين الدين المذكور وصف شائق للمركة يوم عين جالوت قال فيه « والله ما خفت في يوم أكثر منه » وذكر أنه رأى مع المسكر الطبول محملة على ثلثة جمل حتى أخفى أسواتها وقمع الضرب بالسلاح على القراقيل (الدروع) والحوذ وما كان يتخلل ذلك من صراخ الرجال ، وذكر أن بين ما وقع بين يديه فرس هائل المنظر من خيول التتار كان يسابق عليها طولبلا .

ذلك خبر أمير من أمراء الغرب على هامش معركة عين جالوت . أما موافقهم بعد ذلك مع ملوك مصر أيام الظاهر وقلاوون وابنيه الأشرف خليل والناصر محمد فكثيرة ، نبرهن على ود وصداقة وتآلف مع مصر ، ومنها رسالة من ديوان مصر تقول : « قد بلغنا أن جوعكم قد تفرقت ، وأنتم تعلمون أن هذا الوقت الذي يظهر فيه مناصرة الدين والدولة القاهرة فليتقدم الأمراء أيدهم الله برجال إلى جهة سيدهاء ، وليجتهدوا في الساعدة على حفظ هذا النفر مؤيدين إن شاء الله » ...

أحمد رمزي

« ابن عينك اليوم يا مولانا لتري أعداءك بين أيدينا » . واستمر الأمر بين مصر والشام على المنازعة والمخاصمة حتى تدخل بين المسلمين من أصلاح الأمر على أن تكون بلاد الشام إلى العريش للناصر وأن تكون مصر للممزر .

وكان الفرنج على الساحل ويهدم الحصون والمعاقل يغزون ويقاثلون المسلمين كافة من أهل الشام وأهل مصر ، وفي تلك الأثناء سقطت بغداد بيد التتار وساقوا خيولهم إلى أراضي الفرات والشام ، فأرسل الملك الناصر صاحب الشام ابنه الملك العزيز إلى هولاكو ومعه تقادم وعدة من الأمراء فوعده بنجدة لإنقاذ مصر من حكمها .

في تلك اللحظة انتهى أمر الأيوبيين أو قضوا على أنفسهم بالقضاء بعد أن خلفوا تقاليد صلاح الدين وارتعوا في أحضان الناصب ، فضاعت منهم بلاد الشام ولم ينقم لهم قامة ، وأنت الأقدار على جند مصر كتابة الماحمة الكبرى في عين جالوت التي تناقل حديثها الأجيال .

في هذه المعركة انضم إلى التتار أمراء وملوك من آل أيوب وغيرهم من مقاتلة المسلمين ، وجاء من أمراء الغرب من وقف في صفوف التتار يحارب بإرادته أو رغم أنه ، وكان منهم زين الدين الذي أشرنا إليه فنقل عنه أنه حضر المصاف بين عسكر مصر والتتار على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨ فلما انهزم التتار وتفرقت جموعهم لجأ فريق منهم إلى المرتفعات واختار بعضهم قمة جبل يشرف على المعركة وتحصنوا هناك فأحاطت بهم الممالك السلطانية وسدت عليهم منافذ الخلاص فلاحق بهم الأمير زين الدين وانضم باختياره إلى جند مصر وحارب التتار وأعجب بماليك السلطان بقتاله وقوة بأسه حتى صاروا يقدمون له الشباب من ترا كيشهم (التركش هي جبة السهام) . ولما انتهت المعركة وجلس الظفر قطز ملك مصر ، وجم بين يديه بالأسرى وفيهم ملوك المسلمين وأمرؤم الذين أعانوا الخصم وحاربوا في صفوفه ، وقدموا إليه الملك السمود صاحب قلعة الصبية من ملوك بني أيوب وكان شديد الرطة في حربه على المسلمين فأمر السلطان في الحال بضرب عنقه . وجم إليه بالأمير

ظهر عربيا :

الطبعة الجديدة المزيبة من كتاب

في أصول الأدب

يطلب من دار الرسالة

ومن المكتبات الشهيرة وثمنه ٢٥ قرشا

عدا أجرة البريد